



المرجعيات الدينية في شعر رابعة العدوية
Religious references in the texts of Rabaa al-Adawiya

المدرس المساعد: حسين كنعان غائب
جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الإنسانية

Abstract

Praise be to God, who created man in the best manner, and may blessings and peace be upon our master and beloved Muhammad, the Chosen One, and upon his good and pure family and companions.

And after:

This research aims to identify the most critical cultural (religious) references to one of the poets of the Abbasid era, namely the poet Rabi'a Al-Adawiya. Her Arab-Islamic cultural (spiritual) heritage has influenced her in many writings. This research has tried to reflect the experiences of this influence and to prove the multiple historical relationships that These influences reached the poet's imagination; from it, we say that cultural references are a complex mixture of culture and reference, which means bringing or using one of the cultural tributaries and employing it in a text in prose or poetry. The novelist or poet uses it and mixes these tributaries in his work to form a creative text full of science. Cultures, leaving in his text or artistic work an aesthetic credited to him, and cultural references in their form combine several diverse references such as history, heritage, religion, philosophy, politics, etc. Thus, the cultural references are different, and the writer may use them all in his text or bring up only some of them.

Email: ha3733611@gmail.com

Published: 1- 6-2024

Keywords: المرجعيات ، الدين ،
رابعة

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
CC BY 4.0

(<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

الملخص

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.
وبعد:

يهدف هذا البحث في الوقوف على أهم المرجعيات الثقافية (الدينية) لشاعرة من شعراء العصر العباسي وهي الشاعرة رابعة العدوية، تأثرت في كثير من كتاباتها بالموروث الثقافي (الديني) الاسلامي العربي، وقد حاول هذا البحث في عكس تجارب هذا التأثر، وإثبات العلاقات التاريخية المتعددة التي أوصلت تلك المؤثرات إلى خيال الشاعرة، ومنه نقول أن المرجعيات الثقافية هي مزيج مركب بين الثقافة والمرجعية، والتي تعني استقدام أو استخدام إحدى الروافد الثقافية وتوظيفها في نص نثرًا أو شعرًا ما، يستعملها الروائي أو الشاعر ويمزج في عمله هذه الروافد لتشكل له نصًا إبداعيًا مليئًا بالعلوم والثقافات، فتترك في نصه أو عمله الفني جمالية تحسب له، والمرجعيات الثقافية في حلتها تجمع بين عدة مرجعيات متنوعة مثل التاريخ والتراث والدين والفلسفة والسياسة وغيرها، بذلك تكون المرجعيات الثقافية مختلفة، فقد يستخدمها الكاتب في نصه كلها أو يستحضر بعضها فقط .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بُعث رحمةً للعالمين سيدنا وحبيبنا محمد الأمين (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) .
وبعد...

إنّ البحث في الشعر العربي يفتح لنا آفاقًا كثيرة؛ لما يحتويه من المعاني الغزيرة والمتعددة، ولاسيما أن الشعر العربي هو وسيلة إعلامية قبل أن يكون نتاجاً فنياً إبداعياً، وفي العصر العباسي انفتحت الدولة العربية الإسلامية على الأجناس الأخرى بسبب اتساع رقعة الفتوحات، ودخلت أقوام هذه البيئات في الإسلام، وأصبح الاختلاط بهم تحت أخوة الدين هو الأساس الثابت.
وعليه شكل هذا الاتساع والانفتاح تعددية في الثقافات والفهم الخاص عند الشاعر، مما أثر في المجتمع والشاعر على السواء، فالتفاعل الثقافي يتجلى من منبع مرجعيات الفنان الثقافية، وينعكس مبدئياً على نشاطاته الأدبية، ليكون هذا التمازج الإبداعي حاضناً لمجالات وضروب ثقافية شتى تحت غطاء أدبي فني بحث، ليختلط هذا وذاك فينتج نص أدبي بإتقان وامتيار بكل مقاييس الإبداع.
فالمرجعيات الثقافية هي تلك الخلفيات المعرفية المتنوعة، من دين وتاريخ وأدب وتراث، وفلسفة وسياسة وإلى غير ذلك من تنوع ثقافي في جل مناحي الحياة، وباعتبار أن توظيف هذه المرجعيات في الخطاب الأدبي، يجعله أكثر بلاغةً وجزالةً وقوةً في الأسلوب واللغة، كما تضيف عليه لمسة ثقافية مميزة،

فلا يكاد يخلو شعر المسلمين من التلميحات القرآنية المعروفة، أو المرجعية الدينية، الذي يمثل أساس موضوعنا، لأنها كانت تمثل ظاهرة أو علامة شائعة في الشعر العربي آنذاك، فأصبحت ضرورة ماسة للبحث والكشف عن دلالاتها العميقة. فتلجأ الشاعرة إلى التضرع والتوسل والمناجاة لله تعالى تارةً، والتعبير عن حبها ومدى تعلقها بالخالق سبحانه وتعالى تارةً أخرى، وتحت تأثير هذه الأمور تظهر مدى تأثر شاعرتنا بالمفردات القرآنية الشريفة والموروث الديني الإسلامي، وعمق فهمها لمعاني الآيات القرآنية وتوظيفها في نصوصها الشعرية، وهذا يرشدنا إلى تحديد تلك الظواهر وتتبعها والتعامل معها على وفق مرجعياتها وعمقها المعرفي، التي تحتاج إلى قراءات باطنية عديدة لفك رموزها وإحياءها داخل النتائج الأدبي. فكانت رابعة العدوية مقلّة في أشعارها ولم يجمع لها ديوان وإنما كان شعرها متأثرًا في كتب الأدب ضمن تيار الشعر الصوفي، وسبب ذلك برأينا يعود إلى انتشار أخبارها وتوحيثها النصوحة بين النقاد وعلماء الأدب الصوفي. مما جعلها محط انظار النقاد وكتاباتهم.

المبحث الأول

رابعة العدوية (مولدها ونسبها، موضوعها ، وفاتها)

أولاً: مولدها ونسبها:

ولدت الشاعرة الصوفية رابعة العدوية في مدينة البصرة الفخاء في أوائل القرن الثاني للهجرة قبل 50هـ في بيت فقير، فعانت في طفولتها من الفقر والبؤس والحرمان، وازدادت معاناتها بوفاة أبيها وضاق بها الدنيا والحياة وبعد اصابة مدينتها الجوع والقحط الشديد لجأت وأخواتها الثلاث يهمن على وجوههن من البلاد بحثاً عن المأوى ولقمة العيش الرغيد، يُقال أن رابعة العدوية فارسية الأصل وانسب أبوها بالولاء إلى آل عتيك وهم بطن من بطون قيس ولهذا كان الجاحظ يسميها بـ (رابعة القيسية) أما كنيته (فأم الخير) وسماها والدها (رابعة) لأنها أصغر بناته الأربعة. كما رفضت الزواج بأي رجل بعد أن تقدم لها الكثيرون من بينهم أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي وعبدالواحد بن زيد ويُروى أن الحسن البصري كان أحد من تقدموا إليها فرفضت وإن كان أبرز من تأثرت بهم في مسيرة التصوف⁽¹⁾.

ثانياً: موضوعاتها

اشتهرت رابعة العدوية القيسية بأنها كانت جارية فقيرة اعتقها سادتها فاحترفت العزف على الناي وعاشت مدة كما تعيش القيان ثم تابت وزهدت وبالغت في التقشف والعبادة وظهرت في أقوالها ومسلكتها البوادر الأولى للتصوف الاسلامي ولأشعار الحب الالهي⁽²⁾. وبعد ذلك كرست رابعة حياتها للعبادة والمناجاة والتضرع للذات الالهية فقط، ويميل مؤرخو التصوف الإسلامي إلى القول بأن رابعة العدوية هي أول من حولت التصوف من الخضوع لعامل الحب، وإنها أول من استعملت لفظ الحب استعمالاً حقيقياً

في مناجاتها وأقوالها المنشورة والمنظومة، وعلى يدها ظهرت العبادة من أجل محبة الله لا من أجل الخوف من النار أو الطمع في الجنة وما فيها. وعليه فإنها اقتصر في أشعارها ذكر الحب الإلهي وكذلك يُرجع مؤرخو التصوف لرابعة إدخال مفهوم العشق الإلهي في التصوف الإسلامي⁽³⁾. إذاً لا بد لنا أن نقف قليلاً عند بيان مفهوم العشق الذي قال عنه العرب قديماً هو أعلى درجة من درجات المحبة.

ثالثاً: مفهوم العشق لغةً واصطلاحاً:

1. لغةً : العِشْقُ: فرط الحب وقيل: هو عُجْبُ المحب بالمحبوب يكون في عفا الحُبِّ ودَعَارَتِهِ؛ عَشِيقُهُ يَعَشِّقُهُ عَشَقًا وَعَشَقًا وَتَعَشَّقَهُ وَقِيلَ: التَّعَشَّقُ ، تكلف العِشْقِ، وقيل العِشْقُ الاسم والعِشْقُ المصدر، قال الاعشى: وما بي من سقمٍ وما بي مَعَشٍ وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: إيهما أحمد فقال: الحب لأن العشق فيه إفراط، وسمي العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العَشَقَةُ إذا قطعت ، وقال أيضاً ابن الأعرابي: العِشْقُ المصلحون غُرُوس الرياحين ومُسَوُّوها، قال والعشق من الإبل الذي يلزم طروقته ولا يحن إلى غيرها⁽⁴⁾.

2. اصطلاحاً: يعرف العشق بأنه يشكل الدرجة القصوى والأعلى من مراحل الحب والمحبة، فالإنسان خُلِقَ مَفْطُورًا على المحبة والرغبة في الوصول إلى الكمال المطلق، فيعرف الهروي المحبة بأنها: (تعلق القلب بين الهمة والأنس) أي يعني تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً حائراً وتائهاً بين طلب المحب لمحبة طلباً لا ينقطع، وبين إنسه بمحوبة⁽⁵⁾، والمحب إذا كان واعياً بحبه ومكتسباً له سمي "مُحِبًّا" وإذا كان مختلطاً بالحب سمي "عاشقاً" والفرق بينهما -فيما يقول شيوخ التصوف- أن المحب مريد والعاشق مراد⁽⁶⁾. ويوضح لنا الإمام الغزالي مفهوم العشق الإلهي فيقول: ((فاعلم أن من عرف الله أحبه لا محالة، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته، والمحبة إذا تأكدت سُميت عَشَقًا، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفردة، ولذلك قالت العرب: "إنَّ محمداً قد عشق ربه" لما رآه يتخلى للعبادة في غار حراء))⁽⁷⁾.

رابعاً: وفاتها

اختلف الباحثون عن تاريخ وفاتها فمنهم من قال أنها توفيت سنة 180 هـ ، ومنهم من قال أنها توفيت سنة 185 هـ (والله اعلم).

المبحث الثاني

المرجعيات الدينية

إنَّ المرجعيات الدينية والإسلامية كانت هي مصدر إلهام الشعراء والأدباء، وذلك بعدَّ ما كانت شاملة لكل المقدسات العقائدية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وجل شعائر الدين الإسلامي، لقد دأب الشعراء على النهل من مضامين المصادر الدينية المقدسة وشعائرها، ليوظفوها في أعمالهم الأدبية، لأن ذلك التوظيف يضفي على إبداعاتهم مسحة من البعد الأخلاقي والثقافي الواعي⁽⁸⁾. "فالدين الإسلامي يحتوي على قيم أخلاقية عالية ويزخر بدلالات إنسانية عتيقة"⁽⁹⁾، أي أنه يحمل كل معاني الأخلاق السامية، والمبادئ الإنسانية الصافية، فكل هذا ينعكس تلقائيًا على نتاج الشاعر والاديب فتظهر إبداعاته في حلة رائعة عليها هالة نورانية إيمانية.

فالشاعر أو الأديب حين تنعكس مرجعيته الدينية على نتاجه الأدبي، يُظهر لنا أجمل وأروع ما تجود به قريحته، وكان حظ شاعرتنا رابعة العدوية مثل حظ الآخرين حين جعلت من مرجعيتها الدينية المنطلق الأول في تدوين أشعارها، فاستقت من الدين الإسلامي وكل ما يصب في بوتقتها من ألفاظ ومعاني وآيات من النص القرآني، والاحاديث النبوية الشريفة وقصص الأنبياء والرسل والملاحم والبطولات الإسلامية⁽¹⁰⁾.

فكان حظ شاعرتنا كحظ الآخرين حين جعلت من مرجعيتها الدينية المنطلق الأول في تدوين قصائدها وأشعارها، فاستقت من الدين الإسلامي وكل ما يصب في بوتقتها من ألفاظ ومعاني وآيات من النص القرآني، فطعمت لغتها بروح الدين الإسلامي من حيث أسلوبها في تركيبها وبناءها الشعري. فقامت بتناص مع عدة سور من القرآن الكريم، فراها هنا كثيرة البكاء من خشية الله والبكاء شوقًا إلى لقاءه ونيل رضاه. فقالت رابعة تصف حالات الحزن والخوف الذي يعتريها وتُنفس عنها بالبكاء، فتقول⁽¹¹⁾:

(من الطويل)

أ للزاد أبكي أم لطول مسافتي؟ وزادي قليل ما أراه مُبْلغي

أُحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك أين محبتي؟

إنَّ الخوف هو المخافة من الله سبحانه وتعالى وهو أن يخاف المؤمن منه تعالى أن يعاقبه في الدنيا والآخرة على تقصيره في أموره الدنيوية، ففي هذا المقطع من شعرها تجلت سورة (آل عمران) في (وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، فالإنسان المؤمن هو الذي يكون الله تعالى ظاهرًا أمامه، ويبحث عن رضا الله تعالى في جميع أموره النظرية والعلمية والتطبيقية، فإذا ارتكب خطأً فلا يبرر لنفسه بـ (سوف، وعسى) وإنما يسارع إلى التوبة وطلب المغفرة، وهو يدرك تمامًا أن لا مهرب ولجوء من الله إلا إليه⁽¹²⁾.



وهكذا كانت شخصية رابعة العدوية حكيمة عالمة كثيرة البكاء خوفاً من الله، قال عنها عبد الله بن عيسى: ((دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور وكانت كثيرة البكاء فقرأ رجل عندها آية من القرآن الكريم فيها ذكر النار فصاحت ثم سقطت))⁽¹³⁾ . وقال أيضاً: كثيراً ما أدخل عليها ف((أسمع وقع دموعها على البوري مثل الوكف))⁽¹⁴⁾ . وقال عنها جعفر بن سليمان: ((أخذ بيدي سفيان الثوري وقال مُر بنا إلى المؤدبة التي لا أجد من استريح إليه إذا فارقتها، فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده، وقال اللهم إني أسألك السلامة، فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: أنت عرضتني للبكاء. فقال: وكيف. قالت: أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت متلطخ بها))⁽¹⁵⁾ .

كما نرى رابعة العدوية في موضع آخر من شعرها تستحضر سورة المائدة وتحديداً في هذه الآية الكريمة (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) المائدة: ٥٤، من خلال هذه الآية نرى تأثرها بالقرآن الكريم إذ نجده في قولها⁽¹⁶⁾: (من المتقارب)

عَرَفْتُ الهوى مذ عرفت هواك وأغلقت قلبي من عاداك
وقمت أناجيك يا من ترى خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلني بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

نلاحظ هنا من خلال قراءتنا للأبيات المتقدمة أن جماليته تكمن في الرثة والنفس القرآني الذي اخرجته الشاعرة من عروقها، لتبرهن لنا بأن العبد يخلص إلى الله تعالى ويختص به فيخلصه من التعلق بالدنيا ومغرياتها وزينتها. وهذه كانت غاية شاعرتنا من الحياة وهدفها الوحيد الذي طالما طمحت إليه، فالمحبة هي: ((الابتهاج بشهود الحق، وتعلق القلب به معرضاً عن الخلق معتكفاً على المحبوب بجوامع هواه غير ملتفت إلى سواه))⁽¹⁷⁾ . فذهبت رابعة إلى وصف حبها وتعلقها بالله تعالى، ففرغت حياتها بتبريد اسمه عمن سواه، فدخلت رابعة إلى مرحلة الحب والعشق الإلهي، فإنها لا يشغلها شاغل عن ذكر الله فهي لا تشعر إلا بجلاله سبحانه وتعالى، ففي الأبيات السالفة ميزت رابعة بين نوعين من الحب: حب الوداد أو الهوى، والحب الخالص. والاول حب ناقص والثاني حب كامل، فهي تأخذ بهما معاً، لتشكل لديها نوعاً فريداً من الحب الفطري لله تعالى⁽¹⁸⁾.

وهناك تفسيرات دقيقة وأراء مهمة لهذا الابيات الشعرية التي أدلى بها الصوفية؛ فنراهم يقولون: ((فأما قولها: حب الهوى، وقولها أنت أهلٌ له، وتفريقها بين الحبين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره من لم يشهده. وفي تسميته ونعت وصفة إنكارٍ من ذوي العقول ممن لا ذوق

له منه، ولا قدم فيه؛ ولكننا نحمل ذلك ونذل عليه من عرفه: يعني حب الهوى: أني رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين، لا عن خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علي؛ ولكن محبتي من طريق العيان، ففرقت منك، وهربت إليك، فاشتغلت بك لما تفرغت لك، وانقطعت عن سواك))⁽¹⁹⁾ كما قال المحب:

فَرَّغْتُ قلبها اشتغالاً بذكري وكذا كل فارغ مشغول⁽²⁰⁾

((أما الحب الثاني الذي هو أهل له تعني حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال. تقول: ثم إنني مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محل الرضوان، لأن حبي لك لا يوجب لك جزاء عليه، بل يوجب علي كل شيء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبداً؛ إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير، ووجب علي الحياء من قلة الوفاء، والخوف لما تعرضت به من حُبك إذ ليس كمثلك شيء))⁽²¹⁾.

فكانت رابعة مؤمنة وعابدة وزاهدة ممن عزف عن الدنيا وملذاتها واعتكفت إلى الله تعالى فأخلصت له في التعبد والطاعة والمحبة فكانت تراه في كل شيء ولا ترى شيئاً خالياً منه، فقالت: ((ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن حباً لذاتك))⁽²²⁾. وقال لها ذات مرة سفيان الثوري: ((لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، ولكن ما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفاً من الله، فأكون كأمة السوء إن خافت عملت، ولا حباً للجنة فأكون كأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكني عبدته حباً له وشوقاً إليه))⁽²³⁾.

ذهبت شاعرتنا في موضع آخر إلى وصف حبها وعشقها لله تعالى، فتقول بأنها شغلت حياتها بذكره عن سواه. فقالت:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحث جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبیب قلبي في الفؤاد أنيسي⁽²⁴⁾

في هذه الأبيات تبين لنا رابعة بأن قلبها امتلأ حباً بالله تعالى وإنه هو وحده يسكن فيه، فهي تستدعي قوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا) القصص: ١٠، لتبين لنا بأن فؤادها أصبح ملأً بذكر الله سبحانه وتعالى، على غرار فؤاد أم موسى حين ملئت بذكر ابنها حتى فاضت، فعبّر عن الملء بالفراغ من ضده، فأرادت رابعة تسليط الضوء على هذه الفكرة في أبياتها⁽²⁵⁾، وهذا التمازج يدل على تأثرها العميق في الآيات القرآنية الشريفة، فشكل تداخلاً في النص الشعري مما أكبسه رونقاً وجمالاً إضافياً، وهذا التوافق الفريد من نوعه بين أبياتها الشعرية وتضمناتها القرآنية يوضح لنا بلا شك من تمكن الشاعرة من لغة القرآن وتفسيره، ومعرفة دلالة السور ومقاصدها الحقيقية، مما أدى إلى تسخيرها لتأدية المعنى المراد في نصوصها الشعرية.

ففرى رابعة إنها كرسست حياتها ووقتها لله تعالى تعبدته وتتوسل به وحده لا لأحد غيره، وما يثبت ذلك إذ إنها رفضت كل من تقدم لخطبتها، فيذكر عبد الرحمن بدوي أخبارها في ذلك نقلاً عن (عين القضاة الهمداني في شكواه، والمرتضى الزبيدي في اتحاف السادة المتقين)⁽²⁶⁾، فقال عين القضاة عنها: « وخطبها عبد الواحد بن زيد، مع علو شأنه، فهجرتة أياماً حتى شفع له إليها إخوانه. فلما دخل عليها قالت له: يا شهواني أطلب شهوانية مثلك!»، ورواه الزبيدي بصورة أكمل فقال: « وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً حتى سئلت أن يدخل عليها، فقالت له: يا شهواني أطلب شهوانية مثلك! أي شيء رأيت في من آله الشهوة»⁽²⁷⁾. وتقول في أبياتها وهي ترد على من يخطبها وتتغنى بمحبة الحق سبحانه وتعالى، وتخص وقتها وحياتها له وحده عز وجل:

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائماً في حضرتي

لم أجد لي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا محنتي

حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلتي

إن أمت وجدًا وما ثم رضا وأعاني في الورى وا شقوتي

يا طبيب القلب يا كل المنى جد بوصل منك يشفي مهجتي

يا سروري يا حياتي دائماً نشأتني منك وأيضاً نشوتي

قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي منك وصلاً فهو أقصى منيتي⁽²⁸⁾

فإنها تحرص على عدم الزواج بأي شخص يتقدم لها وتصر على العكوف لعبادة الله تعالى والتضرع له، والتزهد في الدنيا عن كل شهوة فهي ترى إن الزواج هو تلبية لرغبات النفس ولذة من ملذات الدنيا الزائلة، فهي أصرت أن تغني نفسها في مرضاة الله والفناء به سبحانه وتعالى، وترى إن الانشغال بغير الله مذلة للنفس أو الروح التي كرمها الله وأعطاه إياها، ففي هذا النص وظفت الشاعرة قوله تعالى: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف: ٣١ ، وهذا الفعل بنظر الشاعرة هو تغافل العبد عن النفس والخلق عند مشاهدة جمال مخلوق معين، فكيف سيكون تغافل العبد عندما يشهد ببصيرته جمال ربه عز وجل⁽²⁹⁾، ويتضح هذا المبدأ الذي اتخذته شاعرتنا منهاجاً لحياتها من خلال لقاء جرى بينها وبين الحسن البصري الذي ((قال لرابعة: أترغبين في أن نتزوج ونعقد العقد. فقالت: يعقد عقد النكاح على موجود، وهنا قد انعدم الوجود، لأنني فنيت عن نفسي، وبقيت به، وأنا كلي ملكه وتحت أمره))⁽³⁰⁾. فكانت حياة رابعة ونهجها في الدنيا هو الاختصاص بالله والتفرغ لعبادته والابتعاد عن ما يشغلها عنه سبحانه وتعالى، وهي ليست من اللاتي يغريهن المال والجاه والسلطان حتى تنتازل ما تعتقد به منذ فطرتها، وإن كل من يمك هذه الأشياء لا يمكن أن

يستحوص على قلبها ويغريها كي تتشغل بغير الله طرفة عين أبدا⁽³¹⁾. ومن خلال هذه المواقف يتضح لنا نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج، فإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب، والحبيب الوحيد هو الله تعالى، وهذا هو الشيء المختلف في رؤية رابعة في التجرد والعزوبية⁽³²⁾.

الزهد والتعبد لله تعالى في الدنيا منهج سارت عليه رابعة العدوية في حياتها، وقضت عمرها في غرفة صغيرة تفتقر لأصغر سبل الوقاية من مخاطر الشتاء وزمهرته وأمطاره، ومن حرارة الصيف وتهيجاته. وكان فيه من الاغراض سجاد تصلي عليه، وتنام عليه، وخرقة خضراء من صوف تتدثر بها في البرد القارص، و وعاء من فخار (حب) تشرب منه الماء. وإن لها ابيات تؤكد شدة حبها للذات الالهية تدور حول الدعاء والتوسل والضراعة والتقرب للذات الالهية، وإيمانها بالله وهو الذي يرزق عبده من حيث لا يحتسب، فإن جل ما اسلفنا تستهله الشاعرة في اشعارها وتطعمه بالمرجعية الدينية⁽³³⁾، كما في قولها:

يا سروري ومنيتي وعمادي وانيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت مؤنسي وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وإني ما تشئت في فسيح البلاد
كم بدت منة وكم لك عندي من عطاء ونعمة وإيادي
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حبيت براح أنت مني ممكن في السواد
أن تكن راضياً عليّ فأني يا منى القلب قد بدا اسعادي⁽³⁴⁾

فالشاعرة هنا في هذا النص استحضرت قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) البقرة: ٢١٢، وقوله تعالى: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۚ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) عمران: ٣٧، لتبين لنا شدة حبها لله تعالى وكيف تدعوه وتتضرع له، وكيف رُزقت بهذا الايمان الرصين في التوكل على الله والاستعانة به، وإن الله تعالى وحده هو الرزاق الذي يمد عبده بالهبات والعطايا من خزائنه المليئة التي لا تنفذ أبداً، فهي تتقن في استعمال المرجعية القرآنية، إذ تستوحي المعنى القرآني في ابياتها الشعرية، وتشير له إشارات خفية يفهمها المتلقي عند النظر والتمحيص فيه، لذلك سمي هذا النوع من الاقتباس بالاقتباس غير المباشر⁽³⁵⁾، ويقصد به ((ما أشار إليه من الآيات من غير أن يلتزم لفظها وتركيبها))⁽³⁶⁾، فهي تستعمل معاني الآيات القرآنية وتطراً عليه بعض التغييرات في التركيب واللغة والدلالة على وفق المعنى الذي تروم التعبير عنه، وإيصال الفكرة للمتلقي، فنراها بعد ان تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها ليلتها فتهناً، أم ردها عليها فتأسى، وإنها تعاهد ربها على أن ترضا بكلتا الحالتين : فسواء لديها أقبال الله

أعمالها أم لم يقبلها، فتسلح وتناضل، لأنها ترى في هذا الجهاد النفسي المستمر وحده معنى حياتها، ولا تهتم إن كلال بالقبول أو لم يُكلل. لذا نراها تقول بعبارة تتم عن إخلاص لا حد له في العبادة والتضرع: «وعزتك لو طردتني عن بابك، ما برحتُ عنه، لما وقع في قلبي من محبتك»⁽³⁷⁾.

الخاتمة ونتائج البحث:

- إنَّ رابعة العدوية كانت من متصوفات البصرة الفحاء هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل من آل عتيك من بني قيس .
- ولدت ونشأت وترعرعت في مدينة البصرة في بطون بني عدوة الذين عرفوا بالتقوى والصلاح وإنهم من المتصوفة، وهي الابنة الرابعة لأسرة مؤمنة عابدة وملتزمة، عرف أبوها بالايامن وعزة النفس والعفاف على الرغم من فقره وعوزه.
- إنَّ رابعة العدوية كانت على قدر عالي من الثقافة القرآنية، وامكانيتها في فهم وتفسير الآيات ومعرفة دلالاتها فكانت تميل للجانب الديني في أشعارها.
- استطاعت رابعة أن تربط مرجعياتها الدينية بظروفها الشخصية وأن تقف على أهم الأحداث التي تمر بها في حياتها، فجعلت من مرجعيتها وسيلةً للبوح عن آهاتها من خلال نصوصها الشعرية.
- استعملت رابعة بعض الالفاظ في شعرها التي كانت متأثرةً بالغرض المشبع بالانكسار والتوبة والترجي لله تعالى .
- من خلال قراءتنا لنصوص رابعة نراها في تأثير عميق في القرآن الكريم ومعرفة كيفية استعمال هذه الآيات المباركة والاستدلال بها للتعبير عن ما يدور في خيالها من حب لله تعالى ومدى التعلق به.
- إن رابعة العدوية تمكنت من التوظيف الفني للآيات القرآنية في نصوصها الشعرية من لغة قوية وأسلوب سلس وجزل وصور شعرية عميقة ، مما جعل المتلقي يشعر بمدى قوة العلاقة والايامن والتعلق الذي بينته الشاعرة بربها عز وجل .

الهوامش

1. الرمز الصوفي في قصيدة "احبك حين" لرابعة العدوية: رسالة ماجستير، جامعة أحمد دراية ادرار، إشراف: د. نواصر سعيد، الباحثين: بركاوي شيماء، كرومي كريمة، 2022م، 29. نقلاً عن: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين: 161، وموسوعة أميرات الشعر العربي: 164.
2. أشعار الحب الالهي من رابعة العدوية إلى ابن الفارض: د. نجم مجيد علي، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية الاساسية، العدد الثامن والخمسون، 2009، 6. نقلاً عن: تصوف الزهد وظهور اشعار الحب الالهي: 13 .

3. العشق الالهي عن المتصوفة (رابعة العدوية، الامام الغزالي، ابن الفارض، السهرودي) انموذجاً، د. كفاح يحيى صالح ، و د. سعدون نجم ، مجلة نسق، مجلد (33) عدد (7) ، 2022م ، 42 .
4. لسان العرب: مادة : عشق، 2356/5 .
5. العشق الالهي عند المتصوفة (رابعة العدوية، الامام الغزالي، ابن الفارض، السهرودي) انموذجاً، د. كفاح يحيى صالح ، و د. سعدون نجم ، مجلة نسق، مجلد (33) عدد (7) ، 2022م ، 40 . نقلاً عن كتاب كشف المحجوب: 107 .
6. الرسالة القشيرية: 610 .
7. إحياء علوم الدين: 857/3 .
8. المرجعيات الثقافية في ديوان بهاء الدين زهير، رسالة ماجستير، جامعة محمد خضير بسكرة، إشراف: د. سليم كرام، الباحثين: حمزة فلياشي - وعبد الحق روبي، 2020م ، 24 .
9. ينظر: المصدر نفسه: 24، نقلاً عن الأسطورة في الشعر العربي المعاصر: 10 .
10. المصدر نفسه: 24- 25 .
11. رابعة العدوية شهيدة العشق الالهي: 130 .
12. التصوف في البصرة "رابعة العدوية العاشقة الالهية": جامعة البصرة، م. د. حبيب عبدالله عبد النبي الفلاح، مجلة الخليج العربي، المجلد: (44)، العدد: (3_4)، لسنة 2016 .
13. صفة الصفوة: 27/4 .
14. المصدر نفسه: 27/4 .
15. صفة الصفوة: 29/4 .
16. ينظر: قوت القلوب: 456/1، والفتوحات المكية: 358/2-359 ، وينظر: رابعة العدوية شهيدة العشق الالهي: 162 .
17. اصطلاحات الصوفية: 279 .
18. ينظر: الرمز الصوفي في قصيدة "احبك حبيب" لرابعة العدوية: رسالة ماجستير، جامعة أحمد دراية ادرار، إشراف: د. نواصر سعيد، الباحثين: بركاوي شيماء، كرومي كريمة، 2022م، 30. وينظر: رابعة شهيدة العشق الالهي: 65 .
19. رابعة العدوية شهيدة العشق الالهي: 65- 66 ، نقلاً عن كتاب " قوت القلوب": 56/2 .
20. قوت القلوب: 57/2 .
21. المصدر نفسه: 58/2 .
22. المعجم الصوفي: 30/3 .
23. قوت القلوب: 456/1 .
24. ينظر: رابعة العدوية امامة المعشوقين والمحزونين: 19 .
25. ينظر: سير أعلام النبلاء: 242/8-242 .
26. رابعة شهيدة العشق الالهي: 51 .
27. المصدر نفسه: 51 .
28. ينظر: الدر المنثور في رباب الخدور: 366_367 /1 .
29. ينظر: رابعة العدوية العاشقة الإلهية: م. د. حبيب عبدالله عبد النبي الفلاح، مجلة الخليج العربي، المجلد: (44)، العدد: (3_4)، لسنة 2016 .
30. تذكرة الاولياء: فريد الدين العطار النيسابوري (618 هـ) - ترجمة: د. منال اليمني عبد العزيز: 1/ 267 .

31. ينظر : رابعة شهيدة العشق الالهي : 59 .
32. ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
33. ينظر: رابعة العدوية امامة العاشقين التي افنت حياتها في الحب، بحث على الانترنت، لمحمد شعبان ايوب، 2019/2/17 .
34. الروض الفائق في المواعظ والرفائق: 117 .
35. ينظر: المرجعيات الثقافية في شعر فتیان الشاغوري: رسالة ماجستير، 11 .
36. معجم آيات الاقتباس: 19 .
37. رابعة شهيدة العشق الالهي: 27 .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- (1) إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي(1963م)، ط1، القاهرة - دار الشعب .
- (2) الاسطورة في الشعر العربي المعاصر: يوسف حلاوي، دار الأدب للطبع والنشر ، بيروت - لبنان، 1994 م .
- (3) اصطلاحات الصوفية : كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني، صححه وقد له مجيد هادي زاده، انتشارات حكمت - طهران 1318 هـ .
- (4) تذكرة الاولياء : فريد الدين العطار النيسابوري (ت:618هـ) - ترجمة: د. منال اليمني عبد العزيز : 267/1 .
- (5) الدر المنثور في رباب الخدور: جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) ، دار الفكر - بيروت سنة 1403 هـ .
- (6) رابعة العدوية "إمامة العاشقين والمحزونين": د. عبد المنعم الحنفي ، دار الرشاد ، القاهرة - مصر ، 1996 م .
- (7) الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري (1988م) ، تحقيق: عبد الحليم محمود، القاهرة - دار الكتب الحديثة .
- (8) الروض الفائق في المواعظ والرفائق: الشيخ الحريفيش، المطبعة الميمنية - القاهرة - مصر، 1886 .
- (9) سير اعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، وحسين الاسد - الناشر مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، ط9 ، سنة 1413 هـ - 1993 م .
- (10) شهيدة العشق الالهي "رابعة العدوية": عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ، ط2، 1962 م .
- (11) صفة الصفوة - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:597هـ)- تحقيق: محمود فاخوري، د . محمد رواس قلعة جي ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، ط2 ، 1399هـ-1979 م .
- (12) قوت القلوب: أبو طالب المكي، المطبعة المعينية ، مصر 1345 هـ .
- (13) كشف المحجوب: أبو الحسن علي الهجويري (1980م) ، تحقيق: إسعاد قتديل، بيروت - دار النهضة.
- (14) لسان العرب: ابن منظور، ج5 ، ط1، القاهرة - دار المعارف .
- (15) المعجم الصوفي: د. سعاد الحكيم، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ، ط1، سنة 1401 هـ ، 2003 م .
- (16) معجم آيات الاقتباس: حكمت فرج البديري، ط1 ، دار الرشيد - بغداد، 1980 م .
- (17) موسوعة شاعرات العرب (من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين) : عبد الحكيم الوائلي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الاردن - عمان ، ط1 ، 2000 م .

الرسائل والاطاريح

- الرمز الصوفي في قصيدة "احبك حبيب" لرابعة العدوية: رسالة ماجستير، جامعة أحمد دراية ادرار، إشراف: د. نواصر سعيد، الباحثين: بركاوي شيماء، كرومي كريمة، 2022م.
- المرجعيات الثقافية في ديوان بهاء الدين زهير، رسالة ماجستير، جامعة محمد خضير بسكرة، إشراف: د. سليم كرام، الباحثين: حمزة فلياشي - وعبد الحق روبي، 2020 م .

- المرجعيات الثقافية في شعر فتيات الشاغوري: رسالة ماجستير، جامعة كربلاء، إشراف: د. حربي نعيم محمد الشبلي، الباحث: أحمد عباس مهدي الحريشاوي، 2022م .
المجلات والدوريات
- أشعار الحب الالهي من رابعة العدوية إلى ابن الفارض: د. نجم مجيد علي، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية الاساسية، العدد الثامن والخمسون، 2009، 6 .
- التصوف في البصرة "رابعة العدوية العاشقة الالهية": جامعة البصرة، د. حبيب عبدالله عبد النبي الفلاح، مجلة الخليج العربي، المجلد: (44)، العدد: (3_4)، لسنة 2016 .
- رابعة العدوية امامة العاشقين التي افنت حياتها في الحب، بحث على الانترنت، لمحمد شعبان ايوب، 2019/2/17 .
- العشق الالهي عن المتصوفة (رابعة العدوية، الامام الغزالي، ابن الفارض، السهرودي) انموذجاً، د. كفاح يحيى صالح ، و د. سعدون نجم ، مجلة نسق، مجلد (33) عدد (7) ، 2022 ، 42 .